

تاريخ القبول: 2022/08/26

تاريخ الإرسال: 2022/01/10

تاريخ النشر: 2022/10/07

القصة الجزائرية المعاصرة بين النشأة والتطور**The contemporary Algerian story between origin and development**

د. أحمد بوعافية

جامعة تمنراست (الجزائر)، bouafiaahmed.tam@gmail.com

المخلص:

إن المتتبع للمشهد الأدبي في الجزائر خلال محطات مختلفة من القرن التاسع عشر، يرى بأن الكتابات القصصية الجزائرية تطورت تطورا ملموسا، جراء حركة التجريب والتأليف الأدبي؛ فقد أسهمت بشكل كبير في عرض الحقائق التاريخية والاجتماعية والسياسية للشعب الجزائري، وذلك بسرد الأحداث التي عبرت عن واقع الحياة في الجزائر قبل وأثناء حرب التحرير، وكذا بعد الاستقلال.

حيث أن العمل القصصي في الجزائر، وعبر مراحلها المختلفة عرف تطور كبيرا، ليصل في الأخير إلى نظام قصصي دقيق، ضمن أبعاد فنية وجمالية ترقى إلى انفتاحية النص والتعامل بجدية مع المستويات السردية المعاصرة .

الكلمات المفتاحية : قصة، جزائرية، معاصرة، نشأة، تطور .

Abstract:

The observer of the literary scene in Algeria during different stages of the 19th century sees that the Algerian writings storytellings have developed significantly, as a result of the movement of experimentation and literary composition. It has contributed greatly to presenting the historical, social and

political facts of the Algerian people, by recounting the events that expressed the reality of life in Algeria before and during the liberation war, as well as after independence.

As the fictional storytelling in Algeria, and through its various stages, witnessed a great development, to reach in the end an accurate narrative system, within artistic and aesthetic dimensions that amount to the openness of the text and dealing seriously with contemporary narrative contemporary.

Keywords: Story, Algerian, contemporary, origin, Development

المؤلف المرسل: بوعافية أحمد، الإيميل: bouafiaahmed.tam@gmail.com

مقدمة:

إن القصة فن من فنون الأدب الجلييلة، يقصد منها ترويح النفس باللهو المباح، وتنقيف العقل بالحكمة، وهذا الفن من الفنون التي احتلت مكاناً، مرموقاً في النفوس، لما لها من مُتعة يحس بها القارئ، وينذوقها السامع، فهي شكلاً من أشكال التعبير، ومن أعرق ألوان الأدب تاريخاً و وجوداً، إذ أن دافع السرد القصصي خاصة إنسانية تشترك فيها جميع الأمم، فهي مرآة الحاضر للماضي، ومظهر حضاري تعرف به الأمم والشعوب والمجتمعات ، و نادرا ما نجد شعباً من الشعوب، أو أمة من الأمم لا يوجد لديها تراث قصصي تُعرف به .

لقد عرفت القصة في الأدب العربي الحديث فقرة نوعية وتطور مذهل بفضل إنتاجها الغزير وتنوع سرديتها، لذلك تصدرت الريادة بين الأجناس الأدبية، فشغلت تفكير الدارسين والنقاد للكشف عن مكنوناتها والغور في أعماقها.

أما الأعمال الأدبية الجزائرية فنرى فيها تعددا في الأساليب الفنية والجمالية، ولعل هذا يعود إلى اختلاف البيئات التي كتب فيها القاصون أعمالهم، فتتعدد

مدلولات القصة الجزائرية ورموزها يدل على ثراء التجربة القصصية الجزائرية المعاصرة وإفادتها المبكرة من الأساليب الفنية الجديدة وانتصارها على الحصار القوي الذي فرضته إدارة المستعمر على التأليف الأدبية.

1- القصة العربية في العصر الحديث:

إن القصة العربية عرفت ترابطا في مراحل نشأتها وتطورها مع التراث القصصي على اعتبار أن عنصر القص (الحكاية)، عرفه المجتمع البشري منذ القدم عن طريق الحكاية الشفوية .

فالحكي فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات، فالإنسان يبدعه أينما وجد وحيثما كان، لذلك يقول رولان بارت: " يمكن أن يؤدي الحكي بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية، وبواسطة الصورة، ثابتة أو متحركة، وبالحركة وبواسطة الامتزاج المنظم لكل هذه المواد إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثلة والحكاية والقصة، والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهاة..."¹.

فالعامل القصصي عموما عرف تطورا كبيرا في مجال فنياته الأدبية المختلفة حيث يقول الدكتور سامي سويدان في هذا الشأن: "إن الوضع المتميز للعمل القصصي لم يقابله اهتمام مماثل في مجال الدراسة والنقد، خاصة من حيث تناول مقوماته الجمالية والتطرق إلى خصوصياته الفنية"².

اعتمد كُتاب القصة العربية الحديثة في بدايات النشأة على المزج بين تقنيات التراث القصصي وتقنيات الأشكال القصصية الحديثة، الذي "يضمن للكاتب أن يتعامل تعاملًا خلاقًا مع حصيلة الإنتاج القصصية سواء انتمت إلى التراث أو إلى الذخيرة العالمية الحديثة"³.

إن العالم العربي فترة الأربعينات حتى نهاية الستينات من القرن الماضي أفرز إنتاجا غزيرا في مجال كتابة القصة، وذلك على يد مجموعة من الأدباء أمثال:

أمينة السعيد من مصر في عملها (آخر الطريق) وكذلك فريد أبو حيدر من مصر في (الأم جحا)، كما نجد غسان كنفاني من فلسطين في (أرض البرتقال الحزين)، و أحمد بن عاشور من الجزائر في (زواج عصري)،.....

من خلال هذا الإنتاج الأدبي ظهرت إبداعات وروائع الكتابات القصصية العربية، وهذا ما تكلم عنه شريط أحمد شريط في إشارة منه إلى عوامل تطور الإبداع في العالم العربي، حيث يقول: "بدأت ملامح الاتجاه الجديد في كتابة القصة في الأدب العربي في نهاية الستينات، بفعل تأثيرات حضارية، أُصيب الفرد العربي - خاصة المثقف- خلالها بالقلق والإحساس بالخيبة، فكان أن تولد في أعماقه شعور عنيف برتابة الحياة، وعدم جدواها، وتكون لديه إحساس بضرورة التخطيط لثورة على الاتجاه الواقعي....."⁴.

ثم في مطلع السبعينات كانت الاستجابة الفنية لمسيرة النثر القصصي استجابة لظروف موضوعية وتاريخية في حركة الثقافة العربية واستمراراً لمجموعة من العوامل تتصل بالوعي من جهة والنظر إلى العالمية من جهة أخرى، فقد خاض الأدب العربي الحديث معارك جمة لإبراز فنيات النثر القصصي ضمن ما يعرف بـ (التجريب والتحديث)، مما أدى إلى ظهور مذاهب أدبية في فنون القصة أسهمت إيجاباً في كثير من الأحيان في ظهور هذا الفن ومدى ربط علاقتها مع الأفكار والتعبيرات الفنية كالأساطير والرمز بفضل العلوم الإنسانية والاجتماعية وقوة الإعلام والثورة المعلوماتية، وتزامن هذا كله مع تطور القصة العربية.

2- المكونات السردية في القصة الجزائرية المعاصرة :

اهتمت القصة القصيرة الجزائرية على غرار العديد من القصص العربية بموضوع المقاومة والنضال ووقائع حرب التحرير، وأصبح هذا الموضوع يُشكل المحور الرئيسي حتى بعد استقلال الجزائر في أغلب كتابات قاصيها سواءً باللغة

العربية أو الفرنسية، وبما أن حرب التحرير كانت لها وقائع سلبية ووخيمة على نفوس الجزائريين فقد اهتم القاص الجزائري بالجانب الإنساني والاجتماعي. من خلال توظيفه للخطاب القصصي أسلوبا وبناءا ودلالة.

فالأعمال الأدبية الجزائرية التي كتبت ما بين سنة 1956 إلى 1972 لها دلالة واضحة على الاستخدامات الفنية الحديثة لمكونات السرد الأدبي، فقد اعتمدت القصة الجزائرية على آليات فنية جديدة في النص بغية الوصول إلى عمل أدبي مُحكم يتسم بقوة مشهدية الخطاب القصصي، فالبناء السردى الممتاز المُشكّل للوظائف السردية هو خير دليل على تمكّن المؤلف من تقنيات الكتابة، من ذلك نلاحظ أن جل الكُتاب الجزائريون استعملوا مكونات سردية تتيح للقارئ فهم النسيج الحكائي عبر مختلف محطات القصة .

وأهم مُكون سردي ينبغي الوقوف عنده في القصة الجزائرية المعاصرة هي الشخصية القصصية، فبنائها وتنوع مدلولاتها خير دليل على نماء التجربة القصصية الجزائرية المعاصرة، فقد اهتم القاصون التاريخيون بالبعد السلوكي والنفسي للشخصية والذي ظل لفترة زمنية حبيس المظاهر الخارجية والسطحية مما يدل على أن للشخصية أساليب عديدة في العرض والتقديم، ولعل هذا التنوع يعود إلى الحياة الاجتماعية التي كتب فيها القاصون قصصهم أو ما عايشوه أثناء حرب التحرير، مما وُلد تطورا على مستوى الصياغة الفنية والشكل البنائي. خاصة عندما انتقلت القصة في بناءها للحدث إلى الواقعة التاريخية لخلق الجانب الفني والإبداعي واتخاذ الحدث إطارا عاما للقصة بدءاً من الأسلوب التتابعي ثم إلى أسلوب التضمين والأسلوب الإيحائي.

وبما أن القصة الجزائرية جاءت لتحاكي القارئ عبر أحداث اجتماعية في أغلب الأحيان ضمن فضاء يتسم بالكثير من تحديات الفرد الجزائري ونمط معيشتته،

لذا فإن توظيف المكان توظيفا واقعيا خدمةً لسرد الأحداث يعتبر ضرورة فنية، وذلك بالاعتماد في أغلب الحالات على الوصف التقريري المباشر الذي يجعل الحكى فعالا ومثمرا، حيث يساعد على فهم دلالة النص وإبراز الجماليات عبر مكونات السرد بشكل منظم من أجل الوصول إلى تفسيرات محددة وغايات فنية، قصد استجلاء جماليات النص وإيصالها إلى قلب القارئ وتجديد ذاقتة الفنية.

و بهذا صار للمكان في هذه المرحلة أنماطا متنوعة خاصة به، فقد أفرز التتبع التاريخي لمسيرة القصة الجزائرية عن تطوير مهم في توظيف الأمكنة وأنواعها وذلك أن أغلب القصص تتوفر على ثنائية ضدية على صعيد النمط المكاني وهذه الخاصية تتبع من خصوصية القصة التاريخية، وتتجسد هذه الثنائية بين (المكان التاريخي ومكان الموضوع).

إن الزمن في النص القصصي أحد أكثر عناصر الفن الأدبي شهرة، وذلك بإرتباطه الوثيق بحياة الناس وتاريخهم فتجلى ذلك في القصة الجزائرية فهو يلون الحاضر بألوان الماضي والمستقبل، فالزمن يتعامل مع الحيز والحدث والشخصيات، وقد أثار الزمن اهتمام العديد من الباحثين فأولوه عناية خاصة، ففي القصة الجزائرية الزمن يمثل الجسر الذي تسير عليه الأحداث، كما أنه مرهون بالإدراك النفسي والاجتماعي والتاريخي.

إن عنصر الزمن والمكان من أهم تقنيات السرد التي تشكل فضاء القصة، فعلى منوال الزمن نسجل الحقائق والأحداث وفي حيز المكان تتحرك الشخصيات، فمن خلال هذه الميزات الفنية ازداد تطور نشوء النظريات العلمية والتي فَعَلت من أدبية القصة الجزائرية .

3- أهم مراحل تشكّل القصة في الجزائر:

من البديهي أن القصة الجزائرية أخذت قوتها وصلابتها من أحداث حرب التحرير التي استمرت تُمد ظلالها على كل الكتابات القصصية، "حتى أنك لا تقرأ مجموعة قصصية إلا وقد أفردت بعض قصصها لحرب التحرير مباشرة أو ربط فيها الواقع الجديد للقصة وواقع حرب التحرير بخيط رهيف"⁵، فمن ثورة 1871 مروراً بانتفاضة 1945، حتى ثورة 1954 وبعدها باستقلال الجزائر سنة 1962، هناك خطوط متقاطعة ساهمت بشكل أو بآخر في بلورة الاتجاهات التي تجلت فيها الكتابات الجزائرية باللغة العربية، أو باللغة الفرنسية قبل وأثناء حرب التحرير وبعد الاستقلال وهذا ما سنتكلم عنه بنوع من الإيجاز .

3-1- القصة الجزائرية قبل حرب التحرير:

هناك العديد من الآراء حول الإرهاصات الأولى لكتابة القصة في الجزائر، حيث" اختلفت آراء الدارسين حول أول محاولة قصصية ظهرت في الأدب الجزائري الحديث، فقد ذهب الدكتور عبد الملك مرتاض إلى أن قصة (المساواة- فرانسوا والرشيد) التي نشرت في العدد الثاني من جريدة الجزائر، في يوم الإثنين 20 محرم 1344 هـ الموافق لـ 10 أوت 1925 هي أول قصة جزائرية... وذهبت الدكتورة عابدة أديب بامية أن أول قصة منشورة هي قصة (دمعة على البؤساء) التي نشرت في جريدة الشهاب سنة 1926"⁶.

أما الكتابة القصصية في صورتها السليمة، فقد "ظهرت عند السعيد الزاهري في قصة (عائشة)، فقد طبع الزاهري مجموعة قصصية بعنوان: (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) عام 1928"⁷، كما يؤكد ذلك الأستاذ عبد الله بن حلي إلى أن النص الذي مس إلى حد ما الهيكل القصصي هي قصة (عائشة)⁸.

أما الدكتور صالح خرفي فيرى أن محمد بن العابد الجلّالي رائداً للقصة الجزائرية القصيرة وذلك بنشره سبع قصص في جريدة الشهاب من سنة 1935-

1937، وهي كالتالي على الترتيب: في القطار، السعادة البتراء، الصائد في الفخ، أعني على الهدم أعنيك على البناء، تموز، بعد الملاقاة، على صوت الببدال⁹.

كما نجد العديد من الأدباء الذين كتبوا في هذه المرحلة أمثال: أحمد رضا حوحو والذي يُعد رائد القصة القصيرة في الجزائر المكتوبة بالعربية وقد كانت مجموعته القصصية الأولى (صاحبة الوحي) أول إرهاباته القصصية وتبوأ الريادة لمدة عشر سنوات (1946-1956) في الكتابة القصصية، كما كتب العديد من القصص أهمها: مع حمار الحكيم، عائشة، فقاقيع الأدب، الفقراء، عادة أم القرى،... أما ممن كتب في الموضوعات الإصلاحية والاجتماعية فنجد أحمد بن عاشور، حيث تركزت موضوعاته حول الزواج بالأجنبيات و الانحراف، الشعوذة وغيرها، من أهم قصصه: عانس تشكو، تضحية، الرجلان والدب الأبيض....

كما يجب أن نُقر بأنه في هذه المرحلة لعبت الصحافة دورا رياديا في الكتابات القصصية -بالرغم من ضعف الإمكانيات المادية و قلة دور النشر-، يقول عبد الملك مرتاض في ذلك: "إن من يدرس النهضة الأدبية والثقافية، بوجه عام، المعاصرة في الجزائر، لن يجد محيصاً من أن يقرر بأن الصحافة العربية كانت ذات أثر بعيد على إنكفاء النهضة الأدبية في الجزائر وإغنائها"¹⁰.

إن الأعمال القصصية الجزائرية المكتوبة في هذه المرحلة بلغت درجة عالية من الوعي، وتميزت بالموهبة الفريدة والعبقرية الفذة، والذوق الحسن والمقدرة على الكتابة والعمق في التعبير والتجاوب الكبير مع الأحداث والمواضيع المرتبطة بالإصلاح والمجتمع.

3-2- القصة الجزائرية أثناء حرب التحرير:

إن المتأمل للقصص الثورية الجزائرية يرى " تميز كتاب جيل الثورة بأنهم ذوو فضل كبير على تطوير الفن القصصي الجزائري، تجاوزوا بفنهم مرحلة الثلاثينات

والأربعينات وقدموا جهودًا إبداعية عبرت عن ظروف الحرب وصورت نضال الإنسان الجزائري لطرد المستعمر خصوصا في أثناء الحرب التحريرية (1954-1962) وبذلك أسهم الأدب في دعم الثورة¹¹.

من أهم كُتّاب هذه المرحلة نجد: عبد الحميد بن هدوقة والذي تكلم عن الغربة وعن الريف الجزائري من أعماله: (الجازية وال دراويش)، (ريح الجنوب)، (الأشعة السبعة)، كما رسم شخصية ممتازة للحوار في قصته (ابن الصحراء).

أيضا نجد عبد الله الركيبي من جيل التحرير الذي كتب مجموعة من الأعمال القصصية أهمها: (نفوس ثائرة)، و (في المغارة)، بالإضافة إلى قصته المثيرة حول المرأة الجزائرية المسماة (الإنسان والجيل)، أما أهم قصة فنية كتبها فهي قصة (الوادي الكبير).

كما لا ننسى أبو العيد دودو والذي بقي وفيًا للقصة وتأثرت لغته بالمعجم اللغوي، وقد ظهرت إبداعاته الفنية بفضل اتصاله بالوسط الجامعي، من أهم قصصه (بحيرة الزيتون) و (رسالة تائر).

أما الطاهر وطار فهو كاتب من رجيل الثورة تتميز كتاباته بلغة ملحمية، ما يميزه عن غيره هو اهتمامه الشديد بالجانب العقائدي والتناقضات الاجتماعية العميقة التي نشأت بين عدة أفكار اجتماعية، كما يُعتبر من أهم الأدباء الذين أثروا في جيل السبعينات وقدموا فنيات أدبية في الكتابة الجزائرية المعاصرة من أهم أعماله القصصية (الطعنات)، (الشهداء يعودون هذا الأسبوع).

نلاحظ أن رواد هذه المرحلة كانت أغلب كتاباتهم تتبع من رحم الثورة التحريرية، "إن علاقة الأدب الجزائري بالثورة التحريرية لم يعد شيئا يحتاج إلى تأكيد كون هذه العلاقة كانت ولا تزال حميمية. فالكاتب الجزائري هذا الممتزج بالأرض وروحا ودما قد سخر قلمه لينفت من ذاته أجمل ما تقوله الكلمة اعترافا لهذا الوطن بجميله"¹².

3-3- القصة الجزائرية بعد الاستقلال:

في هذه المرحلة نجد الكثير من الأعمال القصصية التي عرفت نجاحا كبيرا بفضل نسيج الأحداث وصورة الحكيم عموما، مما أنتج لنا سردية جديدة تتماشى والتقنيات المعاصرة، من أمثال هؤلاء نجد: (الممرضة الثائرة) لمحمد صلاح الدين، (زمن المكاء) للخير شوار، (حائط رحمونة) و (مغارة الصابوق) لعبد الله كروم، (السكاكين الصدئة) لحسين فيلاي، (شاء القدر) لجميلة طنباوي، (البديل) لبديس فوغالي، (أمطار الليل) لبشير مفتي، (حبارة) لجمال فوغالي، (جدارية لا تصحو) لعمارة كحلي، (رسائل) لحكيمة صبايحي، (حلم على قارعة الطريق) لعائشة بورشاق، وغيرهم...

يشير محمد مصائف إلى أن: "معظم مواضيع القصة الجزائرية بعد الاستقلال لا تبرح الثورة وما يتصل بها من حديث عن الهجرة خارج الوطن، وآثار الاستعمار كما هو عليه في مجموعة زهور ونيسي في (الرصيف النائم)، و دودو في (بحيرة الزيتون)، و وطار في (الطعنات)...."¹³.

أما عبد القادر بن سالم فيرى أن الخطاب القصصي من خلال جيل الثمانينيات "يمكن اعتباره بنية مؤسسة لمرحلة أخرى في القصة العربية الجزائرية المعاصرة، تخرج عن سلطة النموذج إلى فاعلية التجريب والانفتاح، وتدمير الخطاب الايديولوجي ذا الطبيعة الأحادية الدغمائية فتتوحد فنيا لنمذجة حركة تحويلية تناهض الجاهز، وتطمح إلى فاعلية التأويل، بل إلى تدمير الميثاق السرد الكلاسيكي للوصول إلى زمن المغايرة والإدهاش، والقفز فوق الفصل بين الأجناس، أي إلى شعرية الخطاب القصصي"¹⁴.

ما نلاحظه في هذه المرحلة أن العمل القصصي اعتمد على آليات السرد المعاصرة، من أجل تحقيق متن حكاوي يتماشى ومتطلبات القارئ الجديد.

خاتمة:

القصة الجزائرية هي شريحة من حياة أو هي حياة كاملة، تُصور مظهرها اجتماعيا أو شعورا إنسانيا تصويرا له دلالة وغاية، تتبع من محيط الكاتب الحقيقي أو المتخيل، لتتلاقى مع عقل وحس وشعور قارئه، تعطي له وتأخذ منه، في إطار عام من الدهشة والفرحة والمتعة والإقناع، ولقد تطورت القصة الجزائرية بفضل أبنائها الذين عرفوا من نبع الأصالة العربية قديما، ومن الآداب العالمية حديثا فكانت لهم بصمتهم الخاصة في هذا الفن.

وبالرغم من كل ما سبق فالقصة الجزائرية لا تزال في تجدها الدائم والمستمر من أجل الرقي والتطور والازدهار، فتواصل الإبداع مرهون بتحديات الكتابة الفنية الحديثة والتي تعتمد على التقنيات السردية المعاصرة باعتبارها وسيلة من وسائل التواصل بين المبدع و القارئ .

على هذا النحو سار الأدب القصصي الجزائري في مسار إجراءاته وأدواته ومناهجه شيئا فشيئا، وأصبح يستقيم في طريقه إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم من أدب يسمو إلى آفاق العالمية.

الهوامش:

- (1) سعيد يقطين، الكلام والخبر-مقدمة للسرد العربي-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997، ص:19.
- (2) سامي سويدان، في دلالية القصص وشعرية السرد ، دار الآداب، بيروت، 1991، ص:10.
- (3) عبد الله أبو هيف، القصة العربية الحديثة والغرب، سيرورة التقاليد الأدبية في القصة العربية الحديثة- دراسة -، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1994، ص:183.

- (4) شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص:37.
- (5) مخلوف عامر، مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر-دراسة-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص:53.
- (6) شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، مرجع سابق، ص:46.
- (7) ينظر: شريط أحمد شريط، المرجع نفسه ص:49.
- (8) ينظر: مخلوف عامر، مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر، مرجع سابق، ص:49.
- (9) ينظر: شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، مرجع سابق، ص:52/49-53.
- (10) عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر- 1952-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983، ص: 120.
- (11) شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1947-1985، مرجع سابق، ص:120.
- (12) عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد (بحث في التجريب وعنف الخطاب عند جيل الثمانينيات)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص:18.
- (13) المرجع نفسه، ص:21.
- (14) نفسه، ص:26.